قسم العلوم الإنسانية جامعة محمد العربي بن مهيدي أم البواقي
السنة الأولى ماستر تاريخ مقيـــاس : التاريخ السياسي للأندلس

المحاضرة التاسعة حول دولة بني الأحمر النهاية السياسية وبداية التحولات

أولاً: مقدمة المحاضرة (الإطار المفاهيمي والتأطير الإشكالي)

شهد القرن الثالث عشر الميلادي انهياراً مروعاً للمنظومة السياسية الإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية. فبعد هزيمة الموحدين في "العقاب" (609هـ/1212م)، تساقطت العواصم الأندلسية الكبرى كأحجار الدومينو بيد الممالك المسيحية. وفي خضم هذا الانهيار، ظهر **محمد بن يوسف بن نصر (ابن الأحمر** (ليؤسس عام 1238م مملكة صغيرة في جبال جنوب الأندلس متخذاً من "غرناطة" عاصمة لها.

لم تكن مملكة غرناطة قوة إمبراطورية كسابقتيها (المرابطين والموحدين)، بل كانت "دولة بقاء(Survival State) "؛ اضطرت للعيش في بيئة جيوسياسية شديدة العداء.

لقد اعتمد بنو الأحمر على استراتيجية "المرونة البراغماتية"؛ فدفعوا الجزية لقشتالة تارة، واستنجدوا بالمرينيين في المغرب تارة أخرى، وبنوا اقتصاداً قوياً وتحصينات جبلية منيعة سمحت لهم بتأخير السقوط الحتمي حتى عام 1492م.

الإشكالية المركزية للمحاضرة:

كيف استطاعت دولة بني الأحمر (التي ولدت من رحم الهزيمة) أن تصمد سياسياً وعسكرياً لقرنين ونصف في وجه الآلة العسكرية المسيحية المتنامية؟ وما هي التناقضات البنيوية (الداخلية والخارجية) التي أدت في النهاية إلى سقوط غرناطة وتدشين مرحلة "التحولات الكبرى" المتمثلة في محاكم التفتيش وقضية الموريسكيين؟

ولتفكيك هذه الإشكالية، سنعالج الموضوع عبر أربعة محاور تحليلية:

1. **المحور الأول :**أسس البقاء الجيوسياسي (المرونة الدبلوماسية ولعبة التوازنات).
2. **المحور الثاني :**التآكل الداخلي (صراع العصبيات والحروب الأهلية داخل قصر الحمراء).
3. **المحور الثالث :**المفارقة الغرناطية (الازدهار الاقتصادي والعمراني في ظل الانحدار السياسي).
4. **المحور الرابع :**السقوط النهائي ومعاهدة التسليم (نهاية الكيان وبداية مأساة الموريسكيين).

المحور الأول: أسس البقاء الجيوسياسي (المرونة الدبلوماسية ولعبة التوازنات)

لم يصمد بنو الأحمر طوال هذه القرون بقوة السلاح وحدها، بل بعبقرية الإدارة الجيوسياسية للمجال والتحالفات. يمكن تلخيص أسس هذا الصمود الاستراتيجي لطلبة الماستر في ثلاث ركائز:

.1الجغرافيا الحارسة (درع الطبيعة)

استفاد ابن الأحمر المؤسس من الطبوغرافيا الوعرة لجنوب الأندلس. لقد احتمت المملكة بسلسلة "جبال شلير (Sierra Nevada) "التي شكلت حصناً طبيعياً ضد سلاح الفرسان القشتالي الثقيل. كما أن احتفاظهم بشريط ساحلي وموانئ استراتيجية (مثل مالقة وألمرية) أبقى خطوط الإمداد مفتوحة مع الشمال الإفريقي، مما منع خنقهم اقتصادياً وعسكرياً.

.2البراغماتية السياسية (التبعية الشكلية لقشتالة)

أدرك محمد الأول (ابن الأحمر) ميزان القوى المختل، فاتخذ قراراً سياسياً مؤلماً ولكنه ضروري للبقاء؛ وهو إعلان تبعيته الرسمية لملك قشتالة (فرديناند الثالث).

- **الثمن السياسي :**تجلى هذا الخضوع في دفع جزية مالية سنوية باهظة، بل ووصلت البراغماتية بابن الأحمر إلى حد إرسال قوات غرناطية لمساعدة قشتالة

في حصار مدينة إشبيلية الإسلامية وإسقاطها عام 1248م. لقد كانت سياسة "شراء الوقت" بالمال والتنازلات لتثبيت أركان دولته الناشئة.

3.سياسة التوازن العابر للمضيق (لعبة الشد والجذب مع المرينيين)

لعب سلاطين غرناطة أخطر لعبة دبلوماسية في العصر الوسيط؛ وهي التوازن بين فكي كماشة: "قشتالة" المسيحية شمالاً، ودولة "بني مرين" في المغرب جنوباً.

- عندما يشتد الضغط القشتالي، كان الغرناطيون يستنجدون بالجيوش المرينية للعبور إلى الأندلس (تحت غطاء الجهاد). ولكن بمجرد زوال الخطر القشتالي، كان بنو الأحمر يسارعون لتقليص نفوذ المرينيين في الأندلس أو حتى التحالف السري مع قشتالة ضدهم، خوفاً من أن يبتلع المرينيون غرناطة كما فعل المرابطون بملوك الطوائف سابقاً.
- **النص المصدر :**يصف لسان الدين بن الخطيب هذه السياسة البراغماتية المعقدة في تسيير العلاقة مع الممالك المسيحية والمغرب قائلاً عن أحد سلاطين بني الأحمر:

"وكان يستألف طاغية الروم (ملك قشتالة) بالمهادنة، ويستمد ملوك المغرب بالموادعة... فيصرف عن بلاده شر هؤلاء وهؤلاء" (1).

الهوامش والتوثيق المرجعي(Chicago Style)

(1)لسان الدين بن الخطيب، *الإحاطة في أخبار غرناطة*، ج 1، تحقيق محمد عبد الله عنان (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1973)، 122.

(2)محمد عبد الله عنان، *دولة الإسلام في الأندلس: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين*، ج 7 (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997)، 45-52.

(3)ليونارد باتريك هارفي، *إسبانيا الإسلامية: 1250-1500*، ترجمة عبد الغني أبو عزم (بيروت: دار المدار الإسلامي، 2004)، 34-39 (L.P. Harvey) .

المحور الثاني: التآكل الداخلي (صراع العصبيات والحروب الأهلية داخل قصر الحمراء)

يجب أن نوضح قاعدة تاريخية هامة: "الدول المحاصرة خارجياً لا تتحمل الانقسام الداخلي". المفارقة المأساوية في تاريخ بني الأحمر هي أنهم بدلاً من رص الصفوف لمواجهة الضغط القشتالي، حولوا قصر الحمراء إلى مسرح لواحد من أعنف الصراعات الأسرية والسياسية في تاريخ الغرب الإسلامي. يمكننا تفكيك هذا التآكل الداخلي عبر ثلاث ظواهر بنيوية:

1. أزمة الخلافة وظاهرة "الانقلابات العائلية"

عانت مملكة غرناطة من غياب "قانون دستوري/عرفي" صارم ينظم انتقال السلطة (كقاعدة ولاية العهد للابن الأكبر مثلاً). هذا الفراغ الدستوري جعل العرش مشاعاً لكل أمير طموح من الأسرة النصرية.

- **النتيجة الكارثية:** من أصل 22 سلطاناً حكموا غرناطة، تم خلع أو اغتيال أكثر من النصف. لقد استنزفت الحروب الأهلية بين الإخوة والأعمام (مثل الصراع الشهير بين أبي عبد الله الصغير وعمه الزغل في أواخر أيام الدولة) الموارد العسكرية والاقتصادية الشحيحة أصلاً، وقسمت الولاءات الشعبية.

2. عسكرة السياسة: دور "مشيخة الغُزاة" (دولة داخل الدولة)

لسد العجز الديمغرافي والعسكري أمام قشتالة، استعان سلاطين غرناطة بفرق من المتطوعين المغاربة (المرينيين) الذين عُرفوا بـ "الغُزاة المجاهدين."

- مع مرور الوقت، تحول هؤلاء الغزاة وقادتهم (مشيخة الغزاة) إلى قوة عسكرية سيادية داخل غرناطة .(Praetorian Guard) أصبحوا يتدخلون في عزل السلاطين وتوليتهم حسب مصالحهم، مما خلق حالة من الاستقطاب الحاد بين "العصبية الأندلسية" المحلية (التي ترفض هيمنة المغاربة) وبين "العصبية العسكرية المغاربية" التي تحتكر السلاح.

- **النص المصدر :**يصف المؤرخ **ابن خلدون**)الذي كان معاصراً وعالماً بخبايا هذه المرحلة) كيف أصبحت شوكة الغزاة مهددة لعرش غرناطة، حيث يذكر أن كبير الغزاة عثمان بن أبي العلاء:

"استبد على السلطان (ابن الأحمر)، وكثرت جموعه من زناتة... وشارك السلطان في ملكه، بل استبد عليه" (1).

.3التدخل القشتالي كـ "صانع ملوك(Kingmaker) "

أدرك ملوك قشتالة أن تدمير غرناطة من الداخل أرخص عسكرياً من اجتياحها. لذا، تبنوا استراتيجية "احتضان التمرد."

- كان البلاط القشتالي يفتح أبوابه دائماً للأمراء الغرناطيين المتمردين والهاربين، ويمدهم بالمال والسلاح للعودة وإشعال الحرب الأهلية ضد السلطان الشرعي. هذه التبعية المزدوجة جعلت القرار السيادي لغرناطة مرتهناً بشكل شبه كلي لمزاج البلاط المسيحي.

الهوامش:

(1)عبد الرحمن بن خلدون،*كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر*، الجزء السابع (بيروت: دار الفكر، 1988)، 345.

(2)لسان الدين بن الخطيب، *اللمحة البدرية في الدولة النصرية*، تحقيق محب الدين الخطيب (القاهرة: المطبعة السلفية، 1928)، 76-80.

(3)محمد عبد الله عنان، *دولة الإسلام في الأندلس: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين*، ج 7 (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997)، 112-118.

المحور الثالث: المفارقة الغرناطية (الازدهار الاقتصادي والعمراني في ظل الانحدار السياسي)

يُخطئ من يظن أن مملكة غرناطة قضت قرنيها الأخيرين في بكاء وانتظار للموت. على العكس تماماً، يدرس المؤرخون اليوم "دولة بني الأحمر" كنموذج فريد لـ "المفارقة التاريخية"؛ فكلما تقلصت جغرافيتهم واشتد الحصار عليهم، ازداد إشعاعهم الحضاري والاقتصادي.

.1اقتصاد اللجوء و"رأسمالية الأزمة"

مع سقوط حواضر الأندلس الكبرى (قرطبة، إشبيلية، بلنسية، شاطبة) طوال القرن الثالث عشر، تدفقت موجات هائلة من اللاجئين المسلمين نحو الشريط الغرناطي الضيق.

- **الأثر الديمغرافي والاقتصادي :**لم يكن هؤلاء اللاجئون مجرد عبء، بل شكلوا "حقنة ديمغرافية" هائلة حملت معها أمهر الحرفيين، وصناع الحرير، والمهندسين الزراعيين. تحولت غرناطة بفضل هذا التركز البشري إلى "ورشة صناعية" كبرى تصدر الحرير الفاخر والخزف ذي البريق المعدني إلى أوروبا، مما وفر للعرش الغرناطي سيولة نقدية ضخمة استُخدمت في دفع الجزية لقشتالة وتمويل التحصينات.

.2قصر "الحمراء": الهندسة كأداة للهروب النفسي وتخليد الهوية

يمثل قصر الحمراء درة التاج العمارة الأندلسية، لكنه في التحليل السياسي يمثل "عمارة القلق والخوف."

- بنى سلاطين غرناطة هذا القصر الباذخ كرسالة تحدٍ وكمحاولة لـ "تجميد الزمن". لقد نقشت عبارة **"ولا غالب إلا الله "**آلاف المرات على جدران القصر. لم تكن هذه مجرد زينة زخرفية، بل كانت "تعويذة أيديولوجية" وشعاراً سياسياً (Motto)يعكس سيكولوجية دولة محاصرة تدرك أن ميزان القوى الأرضي ليس في صالحها، فتحيل نصرها إلى الغيب المطلق.

المحور الرابع: السقوط النهائي ومعاهدة التسليم (نهاية الكيان وبداية التحولات).

شهد أواخر القرن الخامس عشر الميلادي تغيراً جذرياً في الجيوبوليتيك الأيبيري، مما جعل سقوط غرناطة حتمية تاريخية لا يمكن تأجيلها.

1.توحيد إسبانيا وتغير ميزان القوى المطلق

في عام 1469م، وقع الحدث الذي كان يخشاه بنو الأحمر طويلاً؛ زواج "فرناندو" ملك أراغون من "إيزابيلا" ملكة قشتالة. هذا الزواج أنهى الانقسام المسيحي ووحد إسبانيا في آلة عسكرية ضخمة وجهت كل مواردها لاجتثاث الجيب الإسلامي الأخير، مستفيدة من التطور الهائل في "سلاح المدفعية" الذي أبطل مفعول الحصون الغرناطية.

2.حصار غرناطة ومعاهدة التسليم(Capitulaciones de Granada)

بعد حصار خانق استمر أشهراً، وحروب أهلية طاحنة أضعفت المدينة من الداخل، اضطر السلطان الأخير **أبو عبد الله الصغير** (Boabdil)لتوقيع معاهدة التسليم في 25 نوفمبر 1491م (سُلمت المدينة فعلياً في 2 يناير 1492م).

- **بنود المعاهدة :**تضمنت المعاهدة 67 شرطاً، بدت في ظاهرها شديدة التسامح؛ إذ كفلت للمسلمين الأندلسيين (المدجنين) حق البقاء في أراضيهم، وممارسة شعائرهم الدينية، واستخدام لغتهم وقوانينهم الإسلامية، وحماية مساجدهم.

3.خيانة العهود وبداية مأساة "الموريسكيين"

لم يكن التسامح الإسباني سوى مناورة تكتيكية لضمان تسليم المدينة دون قتال شوارع. بمجرد استتباب الأمر للملكين الكاثوليكيين، بدأ النقض التدريجي للمعاهدة.

- **التحولات الكبرى (الانتقال للسرية) :**في عام 1499م، قاد الكاردينال "سيسنيروس" حملة تنصير قسري، وحرق للمكتبات العربية، مما أدى لاندلاع ثورة البيازين، ثم ثورة البشرات. انتهى الأمر بصدور مرسوم 1502م الذي خيّر المسلمين بين "التعميد" أو "الطرد". هنا ولدت قضية **الموريسكيين**

(المسلمون في الظاهر، والمسيحيون في السجلات الرسمية)، لتبدأ أطول عملية استئصال ثقافي وديني في أوروبا عبر آلة "محاكم التفتيش.(Inquisition) "

الخاتمة العامة للمحاضرة

مثلت مملكة غرناطة (دولة بني الأحمر) الفصل الأخير، والأكثر دراماتيكية، في مسيرة الوجود الإسلامي بالأندلس الذي امتد لثمانية قرون. لقد أثبتت هذه المملكة الصغيرة أن "الجغرافيا السياسية المحاصرة" يمكن أن تصنع المعجزات إن تم توظيف التوازنات الدبلوماسية بذكاء واستثمار الموارد الاقتصادية والبشرية بفعالية. إلا أن قانون التاريخ لا يرحم؛ فالتفكك الداخلي عبر الحروب الأسرية، وصعود قوة إسبانية مسيحية موحدة مدججة بتكنولوجيا عسكرية جديدة، جعلا من الانهيار مسألة وقت.

لم يكن تاريخ 2 يناير 1492م مجرد سقوط لمدينة، بل كان نهاية لـ "كيان سياسي سيادي"، وبداية لـ "تحول سوسيولوجي" مأساوي؛ حيث تحول المسلمون من "أمة حاكمة" إلى "أقلية مضطهدة" (الموريسكيون)، أُجبرت على عيش إسلامها في السراديب المظلمة هرباً من نيران محاكم التفتيش، لتنطوي بذلك أعظم تجربة حضارية عرفها الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

المحور الثالث: المفارقة الغرناطية (الازدهار الاقتصادي والعمراني في ظل الانحدار السياسي)

يُخطئ من يظن أن مملكة غرناطة قضت قرنيها الأخيرين في بكاء وانتظار للموت. على العكس تماماً، يدرس المؤرخون اليوم "دولة بني الأحمر" كنموذج فريد لـ "المفارقة التاريخية"؛ فكلما تقلصت جغرافيتهم واشتد الحصار عليهم، ازداد إشعاعهم الحضاري والاقتصادي.

.1اقتصاد اللجوء و"رأسمالية الأزمة"

مع سقوط حواضر الأندلس الكبرى (قرطبة، إشبيلية، بلنسية، شاطبة) طوال القرن الثالث عشر، تدفقت موجات هائلة من اللاجئين المسلمين نحو الشريط الغرناطي الضيق.

- **الأثر الديمغرافي والاقتصادي :**لم يكن هؤلاء اللاجئون مجرد عبء، بل شكلوا "حقنة ديمغرافية" هائلة حملت معها أمهر الحرفيين، وصناع الحرير، والمهندسين الزراعيين. تحولت غرناطة بفضل هذا التركز البشري إلى "ورشة صناعية" كبرى تصدر الحرير الفاخر والخزف ذي البريق المعدني إلى أوروبا، مما وفر للعرش الغرناطي سيولة نقدية ضخمة استُخدمت في دفع الجزية لقشتالة وتمويل التحصينات.

.2قصر "الحمراء": الهندسة كأداة للهروب النفسي وتخليد الهوية

يمثل قصر الحمراء درة التاج العمارة الأندلسية، لكنه في التحليل السياسي يمثل "عمارة القلق والخوف."

- بنى سلاطين غرناطة هذا القصر الباذخ كرسالة تحدٍ وكمحاولة لـ "تجميد الزمن". لقد نقشت عبارة **"ولا غالب إلا الله "**آلاف المرات على جدران القصر. لم تكن هذه مجرد زينة زخرفية، بل كانت "تعويذة أيديولوجية" وشعاراً سياسياً (Motto)يعكس سيكولوجية دولة محاصرة تدرك أن ميزان القوى الأرضي ليس في صالحها، فتحيل نصرها إلى الغيب المطلق.

المحور الرابع: السقوط النهائي ومعاهدة التسليم (نهاية الكيان وبداية التحولات)

شهد أواخر القرن الخامس عشر الميلادي تغيراً جذرياً في الجيوبوليتيك الأيبيري، مما جعل سقوط غرناطة حتمية تاريخية لا يمكن تأجيلها.

.1توحيد إسبانيا وتغير ميزان القوى المطلق

في عام 1469م، وقع الحدث الذي كان يخشاه بنو الأحمر طويلاً؛ زواج "فرناندو" ملك أراغون من "إيزابيلا" ملكة قشتالة. هذا الزواج أنهى الانقسام المسيحي ووحد إسبانيا في آلة عسكرية ضخمة وجهت كل مواردها لاجتثاث الجيب الإسلامي الأخير، مستفيدة من التطور الهائل في "سلاح المدفعية" الذي أبطل مفعول الحصون الغرناطية.

.2حصار غرناطة ومعاهدة التسليم(Capitulaciones de Granada)

بعد حصار خانق استمر أشهراً، وحروب أهلية طاحنة أضعفت المدينة من الداخل، اضطر السلطان الأخير **أبو عبد الله الصغير** (Boabdil)لتوقيع معاهدة التسليم في 25 نوفمبر 1491م (سُلمت المدينة فعلياً في 2 يناير 1492م).

- **بنود المعاهدة :**تضمنت المعاهدة 67 شرطاً، بدت في ظاهرها شديدة التسامح؛ إذ كفلت للمسلمين الأندلسيين (المدجنين) حق البقاء في أراضيهم، وممارسة شعائرهم الدينية، واستخدام لغتهم وقوانينهم الإسلامية، وحماية مساجدهم.

.3خيانة العهود وبداية مأساة "الموريسكيين"

لم يكن التسامح الإسباني سوى مناورة تكتيكية لضمان تسليم المدينة دون قتال شوارع. بمجرد استتباب الأمر للملكين الكاثوليكيين، بدأ النقض التدريجي للمعاهدة.

- **التحولات الكبرى (الانتقال للسرية) :**في عام 1499م، قاد الكاردينال "سيسنيروس" حملة تنصير قسري، وحرق للمكتبات العربية، مما أدى لاندلاع ثورة البيازين، ثم ثورة البشرات. انتهى الأمر بصدور مرسوم 1502م الذي خيّر المسلمين بين "التعميد" أو "الطرد". هنا ولدت قضية **الموريسكيين**)المسلمون في الظاهر، والمسيحيون في السجلات الرسمية)، لتبدأ أطول عملية استئصال ثقافي وديني في أوروبا عبر آلة "محاكم التفتيش.(Inquisition) "

الخاتمة العامة للمحاضرة

مثلت مملكة غرناطة (دولة بني الأحمر) الفصل الأخير، والأكثر دراماتيكية، في مسيرة الوجود الإسلامي بالأندلس الذي امتد لثمانية قرون. لقد أثبتت هذه المملكة الصغيرة أن "الجغرافيا السياسية المحاصرة" يمكن أن تصنع المعجزات إن تم توظيف التوازنات الدبلوماسية بذكاء واستثمار الموارد الاقتصادية والبشرية بفعالية. إلا أن قانون التاريخ لا يرحم؛ فالتفكك الداخلي عبر الحروب الأسرية، وصعود قوة إسبانية مسيحية موحدة مدججة بتكنولوجيا عسكرية جديدة، جعلا من الانهيار مسألة وقت.

لم يكن تاريخ 2 يناير 1492م مجرد سقوط لمدينة، بل كان نهاية لـ "كيان سياسي سيادي"، وبداية لـ "تحول سوسيولوجي" مأساوي؛ حيث تحول المسلمون من "أمة حاكمة" إلى "أقلية مضطهدة" (الموريسكيون)، أُجبرت على عيش إسلامها في السراديب المظلمة هرباً من نيران محاكم التفتيش، لتنطوي بذلك أعظم تجربة حضارية عرفها الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.